بسم الله الرحمن الرحيم

قرأتها .. ولم أكُن قرأتها

هى رواية الأديب الكبير الأستاذ نجيب محفوظ « أولاد حارتنا » التى ثارت حولها ضجات صاخبة ، وزوابع عاتية ثلاث مرات :

الأولى : حين صدورها ونشرها لأول مرة عام ١٩٦٠م ، ثم انتهى الأمر إلى مصادرتها ومنع تداولها .

والثانية : حين حصل الأديب الكبير على جائزة نوبل العالمية عام ١٩٩١ م تقديراً له على مجموعة أعماله الروائية ، وفى مقدمتها روايته « أولاد حارتنا » وكانت الضجة ، والزوابع فى هذه المرة مزدوجة ، أحدُ طرفيها المعجبون بالرواية ومؤلفها ، والطرف الثانى النقاد الذين رأوا فى الرواية مساساً بالدين وحقائق الإيمان ، وكاتب هذه الدراسة ، كان ممن كتب عنها ناقداً لا معجباً ، حيث نشرت له جريدة « النور الإسلامية » مقالاً ضافياً على صفحة كاملة . وكنت حين كتبت ذلك المقال لم أقرأها قراءة مباشرة ، وكتبت ما كتبت اعتماداً على قراءات عنها لا فيها ، وكان من قرأت لهم عنها أثق فيهم وفى نزاهتهم وموضوعيتهم ، وصدقهم وإخلاصهم . وقد توقفت هذه الضجة والرواية تتأرجح بين الإدانة والبراءة ، ولم يحقق أى الطرفين نصراً على الآخر ، أو حتى شبه نصر .

والمرة الثالثة ، هى التى حدثت عقيب الاعتداء على الأديب الكبير الأستاذ نجيب محفوظ ، فى منتصف أكتوبر من العام المنسلخ ١٩٩٤م ، واعتراف المعتدى بأن « رواية أولاد حارتنا » هى السبب فى ذلك الاعتداء .

فى هذه المرة تجاوزت الضجة حول « أولاد حارتنا » كل حدٍّ معهود ، كأنها إعصار مدمر سلب الناس أمنهم واستقرارهم ، فكثر الحديث عن « أولاد حارتنا » فى كل مكان ، وشغل مساحات جدٍّ واسعة فى وسائل الإعلام المصرى ، والعربى ، بل والعالَمى ، وسارعت بعض الصحف القومية والحزبية فى مصر بنشرها أو نشر فصول منها ، جرياً وراء الكسب المادى من جهة ، وطرقاً للحديد وهو ساخن من جهة أُخْرى . ومن لم يكن همه المال من نشرها - كجريدة الأهالى - كان الباعث له على نشرها أهدافاً أيديولوچية رأى فى نشر « أولاد حارتنا » انتصاراً ساحقاً لأيديولوچيته ؟!

أما المعجبون « الأفراد » ، فقد ملأوا الدنيا صخباً وعويلاً ، ومنهم من نصَّبَ نفسه « محامياً » لا عن الكاتب ، ولكن عن المكتوب « أولاد حارتنا » ؟

فريق منهم اكتفى بإظهار براءة الرواية من كل سوء !

وفريق ذهب إلى أنها رواية « إيمانية » تنصر الإيمان بالله ورُسُله ولا تخذله ؟!

وفريق ادَّعى أنها رواية تحكى أنماطاً من الحياة فى مصر ، وفى فترة محددة من تاريخها الطويل ؟!

وآخر اتهم نقاد الرواية بعدم الفهم ، وأنهم لا يحسنون القراءة « الفنَية » ، ولا يفرقون بين الخيال والتأريخ ؟! وكلام كثير ، قيل ، وكُتِب ، وأُذِيع ؟!

وفى هذه المرة - الحرجة - اختفى النقاد ، فلم يظهر لهم أثر ، وربما كان السبب فى ذلك وقوع الاعتداء على الأستاذ « محفوظ » وما أحيط به من ملابسات ، وليس من الحكمة إمداد الحريق بوقود والناس يحاولون إطفاءه .

فى هذه الأثناء ، ووسط هذا الموقف الملتهب ، وجدت نفسى مدفوعاً بشدة لم أعرف لها فى حياتى مثيلاً ، لقراءة الرواية « أولاد حارتنا » فبدأت فى القراءة بعد منتصف ليل مكة المكرمة ، وواصلت القراءة بِنَهَمٍ ، ونسيت أنى بَشر محتاج إلى الأكل والشراب والنوم والراحة ؟ فليس لى شاغل - إذا

فرغت من عملى - إلا القراءة ، ولم أكن أنصرف عنها إلا إذا أحسست بالحروف تذوب على الورق أمام عَيْنَيَّ حتى لو استعملت النظارة ، هنا - فقط - أتوقف عن القراءة ، عاجزاً لا مختاراً !

ثم وجدتنى أفرغ منها على طول صفحاتها - ٥٥٢ صفحة - فى ثلاث ليالٍ ؟ وصفحاتها من القطع الكبير لا الصغير [١] .

وكما دُفِعْتُ - بشدة - على قراءتها ، دُفِعْتُ - بشدة أشد - للكتابة عنها ، لكن بعض الحكماء من « المعارف » أشاروا علىّ بإرجاء الكتابة عنها حتى تهدأ العاصفة . فاستصوبت هذا الرأى ، وامتثلت للنصح الحكيم .

* * *

(١) طبعة بيروت عام ١٩٦٢م .

والآن

والآن (١٥ - شوال ١٤١٥ هـ - ١٦ مارس ١٩٩٥م) ، وقد سكنت العاصفة ، وتحقق الشفاء للكاتب الكبير الأستاذ « محفوظ » وعاد الهدوء ، واستأنف مؤلف الرواية « أولاد حارتنا » حياته العادية ، عاودتنى رغبة ملحة فى الكتابة عن الرواية ، وبخاصة أنى قرأتها بعد المرأة الأولى مرتين أخريين ، كانتا أكثر فهماً وأعمق غوراً من الأولى ، وتكونت لدىّ فكرة جدَّ واضحة عن الرواية ، حتى صرت شهيداً لها أو عليها ، وكتمان الشهادة إثم عند الله :

﴿ . . وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ، وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ . . ﴾ (١) .

* *

● **حصيلة القراءة :**

تكونت لدىّ فكرة واضحة من خلال قراءة « أولاد حارتنا » من المرة الأولى التى قرأتها فيها على عجل .

وتأكدت لدىَّ تلك الفكرة فى صورة أوضح وأثبت - من القراءات التالية ، وكلما عاودت القراءة - ولو لبعض فقرات منها - ازددت يقيناً بصدق الفكرة التى تكوَّنت لدىَّ من أول مرة ، وظفرت بالأدلة القاطعة على صدقها من خلال ما جاء فى الرواية من كلام المؤلف نفسه ، إما على لسان بعض أشخاص أو شخوص الرواية ، وإما من كلامه المباشر ، وتصوراته وتعليقاته على بعض المواقف المسرودة فى الرواية .

* *

---

(١) البقرة : ٢٨٣

● كيف نفهم الرواية ؟

كتب الأستاذ نجيب محفوظ روايته « أولاد حارتنا » عن موضوع احتفظ به فى طوايا نفسه ، ثم اختار الأسلوب الرمزى وسيلة للتعبير عنه ، فلا تكاد ترى له لفظاً استعمل فى معناه الوضعى أو معناه المجازى ، بل انتقى ألفاظه بذكاء خارق فى شكل رموز يصعب على القارئ العام إدراك ما وراءها من معان ومقاصد . فكل معنى من معانيه التى لا يريد الإفصاح عنها تجده مغلفاً فى غلاف رمزى شفيف أو كثيف . . ؟

ثم هو كثيراً ما يلجأ إلى الهروب أو الإحجام كلما أحس بأن المعنى الذى يواريه خلف الرموز يكاد أن يظهر ، فإذا أحس بذلك سرعان ما ينقض إلى الوراء للتمويه والإفلات .

وهذا يمكن أن نطلق عليه : الفر بعد الكر ، أو الإحجام بعد الإقدام ، وله فى ذلك مسالك عديدة سننبه عليها فى بعض المواضع .

ولذلك فإن فَهْمَ المعانى الخبيئة فى الرواية ، وكذلك المقصود العام منها يتوقف - أى الفهم - على العناصر الثلاثة الآتية :

أولاً : العلم بمادة الموضوع الذى صاغ روايته حوله .

ثانياً : فك الرموز التى شاعت فى الرواية ، ومعرفة مدلولاتها خارج الرواية .

ثالثاً : التمكن من معرفة مواضع الفر بعد الكر ، أو الإحجام بعد الإقدام ، للتمويه على القارئ ، وإثارة موجات من الضباب المعتم أمام ناظريه .

ولذلك ؛ فإن فهم « أولاد حارتنا » يصعب على القارئ العادى ، ولما كان الحديث عنها قد عمَّ وطم ، وأن الإرهاصات بتقديمها للجمهور فى شكل مسلسلات تليفزيونية ، أو فيلم كفيلم « المهاجر » قد بدأت تتردد ، أمام هذا

كله رأيت من « الواجب » التعريف بحقيقة هذه الرواية ، شهادة حق أُسْأَلُ عنها أمام الله العليم بذات الصدور .

❊ ❊

● **فك الرموز** :

التعريف بـ « أولاد حارتنا » يبدأ بفك الرموز المستعملة فيها ، ثم التنظير بين معانيها الرمزية ، والمعانى المقابلة لها فى الخارج فى مادة الموضوع الذى أدار عليه المؤلف الحديث من طرف خفى ، ثم الكشف عن مواضع « الفر » أو « الإحجام » بعد « الكر » أو « الإقدام » الذى أشرنا إليه من قبل .

❊ ❊

● **أنواع الرموز** :

الرموز التى وظَّفها الكاتب الكبير الأستاذ « محفوظ » ليست نوعاً واحداً ، بل جاءت - كما تبين لنا بعد النظر الطويل - على ثلاثة أقسام :

الأول : رموز « أشخاص » أو « شخوص » [1] ، مثل أدهم وعرفة .

الثانى : رموز أماكن ، مثل « صخرة هند » و « الخلاء » .

الثالث : رموز معان ، مثل « الوقف » ، و« السحر » .

وهذه الرموز على اختلاف أنواعها قسمان :

● رموز شفيفة يمكن فهم معناها بيسر وسهولة .

● رموز كثيفة لا يُفْهم المراد بها إلا بعد فكر طويل ، وتأمل عميق .

وبفضل الله وتوفيقه استطعنا فك رموز الرواية بقسميها :

الشفيف والكثيف - كما سيرى القارئ - وهذا جعلنا على ثقة كاملة بأن

---

(١) الأشخاص ما كان لهم وجود فى الواقع ، والشخوص ما ليس لها وجود إلا فى الخيال .

ما نقدمه للقارئ فى هذه الدراسة ، ترجمة صادقة لألغاز الرواية ، والموضوع الذى تحكيه ، والأهداف المرادة منها ، مهما توارت وأحيطت بهالة من الغموض المتعمد ، والتمويه المريب .

❊ ❊

• الرموز التى نركز على فكها :

ومن جهة أُخرى نوزع رموز الرواية - كلها - على درجتين :

الأولى : رموز أصول أو أقطاب يدور عليها بناء الرواية كلها ، أو بناء فصلٍ فصلٍ منها ، مثل : الجبلاوى ، والبيت الكبير ، والوقف . فهذه رموز أصول اعتمد عليها الكاتب الروائى من أول كلمة ، إلى آخر كلمة فى « أولاد حارتنا » .

ومثل : أدهم ، جبل ، رفاعة ،قاسم ، عرفة . فهذه رموز أصول - كذلك - لكنَّ كل رمز منها موقوف - بالدرجة الأولى - على الفصل الذى ورد فيه .

الثانى : رموز مساعدة أو « فرعية » تؤدى دوراً ما فى نسيج الفصل الذى هى فيه ، وذلك مثل « البلقيطى » فى فصل « جبل » ، و« عبدة » فى فصل « رفاعة » ، و« زكريا » فى فصل « قاسم » ، و« حنش » فى فصل « عرفة » ، ومثل « همام » فى فصل « أدهم » من قبل .

والرموز الأصول حين يُفَك معناها سرعان ما تتساقط طاقات من الضوء على وجوه الرموز « المساعدة » أو « الفرعية » ، فيُدْرك معناها تباعاً على طريقة تداعى المعانى كما يقول علماء النفس ، لذلك فإن الرموز التى سنركز على فك معانيها ، ونقيم عشرات الأدلة على صدق ما فهمناه منها ، هى الرموز الأصول . أما الفرعية فسنشير إلى معناها دون سرد أدلة ، توخياً للإيجاز من جهة ، ولأن أدلة الرموز الأصول الواقعة هى - أى الفرعية

المساعدة - فى إطارها أدلة عليها فى الواقع ، من جهة أُخرى . فالرموز الأصول هى مفاتيح الأبواب الخارجية للحصون الخمسة التى بناها المؤلف بقلمه فأحكم بناءها ، فإذا تمكنت من « فتح الباب الخارجى » سهل عليك التجوال فى البيت ، أما غرفه من الداخل فقد اعتاد الناس عدم غلقها ، وحتى لو أغلقوها اكتفوا بمجرد « سد الغرف بالأبواب » دون استعمال الأقفال وإحكامها ، هذا المثل ينطبق تماماً على صُنْع الأستاذ « محفوظ » فى روايته « أولاد حارتنا » العالَمية لفظاً ومعنى ؟

❊ ❊

● **ماذا فهمنا ؟**

سبق أن فكرة واضحة تكوَّنَتْ لدينا من قراءة « أولاد حارتنا » ، فما هى تلك الفكرة ؟

فى الواقع أننا فهمنا أمرين بينهما تناسق الأسباب والمسببات :

الأمر الأول : فهمنا « جوانيَّات » الأستاذ نجيب محفوظ حين خط بمشاعره ووجدانيَّاته هذه الرواية ، قبل أن يخطها سطوراً على الورق بقلمه .

الأمر الثانى : فهمنا رأى أو مذهب - وهو الأصح - الأستاذ نجيب محفوظ فى الموضوع الذى تحدَّث عنه من وراء ستار فى الرواية ، ثم مذهبه فى البديل عنه - عن الموضوع - ومصير كل منهما ، وهذان الأمران بينهما تناسق الأسباب والمسببات كما قلنا . فالأمر الأول - الجوانيَّات - كان سبباً فى الأمر الثانى لا محالة ، ولنضع النقط فوق الحروف :

❊ **الجوانيَّات** :

كان الأستاذ نجيب محفوظ حين كتب روايته « أولاد حارتنا » ينتابه قلق فكرى فلسفى حول « نظرية المعرفة » وهى إحدى القضايا الحيوية التى طرقها الفكر الفلسفى منذ أقدم العصور ، ومؤلف الرواية واحد من رجال الفلسفة ،

ومن المعروف أن نظرية المعرفة هذه تتعلق بما وراء الطبيعة ، أو « الميتافيزيقيا » ، وبعبارة أوضح : الأمور الغيبية ، كحقائق الإيمان بالله ، ونشأة الكون والإنسان وهل للكون خالق مُدبِّر أم خالق غير مدبِّر أم ليس له خالق على الإطلاق ؟!

ونتج عن هذا الاختلاف حول مصدر المعرفة ثلاثة مذاهب :

الأول : أن مصدر المعرفة هو الدين ، وطريقه الوحى وكلام الرُّسُل .

الثانى : أن مصدر المعرفة هو العقل ! وطريقه التأمل المجرد [1] .

الثالث : أن مصدر المعرفة هو الحواس الخمس ، ومجالها المادة المحسوسة ، وطريقها التجارب والملاحظة والاستنتاج ، أو بعبارة أوجز : مصدر المعرفة هو العلم الحديث ؟!

ومع ازدهار حركة العلوم الحديثة ، وما نتج عنها من اكتشافات ومبتكرات مذهلة ، أحدثت فى الفكر انقلاباً ، وفى الحياة تطوراً ، مع هذا الجديد كله أكبر الناس العلم الحديث ، وفُتنوا به ، وبخاصة شرائح معينة من المثقفين ، ومنهم الأستاذ « محفوظ » ، وعلقوا عليه آمالاً لا نهاية لها ، وبدأ حظ الدين - عند هؤلاء - فى العد التنازلى ، فزهدوا فيه ونزعوا الثقة منه ؟! وأداروا له ظهورهم عن سوء فَهْم ؟!

واختلافهم حول مصدر المعرفة ترتب عليه أمر آخر شديد الخطورة وهو ربط الإلزام والتوجيه فى الحياة بما هو مصدر للمعرفة :

- فمن ذهب إلى أن الدين هو مصدر المعرفة جعل له السيادة على شئون الحياة كبيرها وصغيرها ، فلا تُسمع كلمة لسواه .

---

(١) العقل له فلسفتان : إحداهما تقوم على التأمل المجرد فى حقائق الكائنات ، وهى المقصودة هنا . والثانية البحث العملى بإجراء التجارب فى حقائق الكائنات ثم الملاحظة والاستنتاج ، وعمله هذا مرتبط بالحواس الخمس . وهذا النوع من العمل العقلى هو المرتبط بميادين العلم الحديث .

- ومن ذهب إلى أن العقل هو مصدر المعرفة رفعه إلى درجة الألوهية ، ونسب إليه الأمر والنهى ، والإرشاد والتوجيه ، فهو المسموع الذى تجب طاعته دون غيره ؟!

- ومن ذهب إلى أن العلم الحسى الوضعى هو مصدر المعرفة ، أسلم إليه الريادة والقيادة فى شئون الحياة ، فهو القائد الأوحد ؟ وما عداه تابع لا متبوع ؟!

ويوضح هذا كله الإجابات الثلاث عن هذا السؤال :

لمنْ نسمع ونطيع ؟

الأولون يقولون : للدين ، والتالون لهم يقولون : للعقل ، والآخرون يقولون : للعلم الحديث ؟! (١) .

هذه الأُمور يعرفها الأستاذ نجيب محفوظ حق المعرفة ، قبل أن يكتب روايته ، وحين كتبها ، وبعد أن فرغ من كتابتها .

وكل كلمة فى الرواية تدل على أن كاتبنا الكبير ، كان حين كتب روايته يؤمن إيماناً قوياً بالاتجاه أو المذهب الثالث ، وهو الولاء الكامل للعلم الحديث، والثقة المفرطة فيه ، مضافاً إليه شعبة البحث العقلى التجريبى زاهداً كل الزهد فيما سواه ، وبخاصة المعارف الدينية ، والتوجيه المنبثق عنها .

هذه هى « جوانيَّات » الأستاذ نجيب محفوظ ، حين كتب روايته « أولاد حارتنا » منذ أكثر من ثلاثين عاماً .

* *

● الهدف من وضع أولاد الحارة :

عرفنا مما سبق الأيديولوچية (العقيدة) التى كانت تسيطر على الأستاذ نجيب محفوظ ، حين وضع روايته الذائعة الصيت « أولاد حارتنا » ، وسنقيم

---

(١) هذا الاختلاف مبنى على أن عداءً مستحكماً قائم بين الدين ، والعقل ، والعلم . وهذا فى الواقع وَهْم من الأوهام ، أدّى إليه سوء الفهم وقصر النظر عند القائلين به .

على وجودها لديه حينذاك أقطع الأدلة من واقع الرواية نفسها ، ومعرفة تلك الأيديولوچية مهمة جداً فى معرفة الهدف الذى وضع روايته من أجله .

هذا الهدف - باختصار شديد - هو تفشيل دور الدين بوجه عام فى حلول مشكلات الحياة ، وتحقيق السعادة للناس فيها ، وبعد وقوع ذلك التفشيل ، من خلال ما ورد فى الرواية ، يأذن الأستاذ « محفوظ » للعلم الحديث أن يطل برأسه إلى الوجود ، ثم ينمو شيئاً فشيئاً حتى يصبح عملاقاً لا يقاوم ، وقادراً لا يعجز ، ثم يتمكن من القضاء على الدين متمثلاً فى قتل أو موت الجبلاوى - كما سيأتى - ويهز مشاعر أولاد الحارة أو الدنيا ، بمخترعاته المذهلة ، فينحاز الناس أو أولاد الحارة إلى عرفة وحنش ، اللذين يمثلان العلم الحديث ، ويفضلونه على الدين عياناً جهاراً ، وينخلعون عن الإطار الدينى النبوى فى وَضَح النهار ؟!

وقد رُكِّبَتْ وقائع الرواية تركيباً عضوياً حياً لا مجرد سَرْد ، وبُنِيت بناءً محكماً متماسكاً ، بحيث تؤدى كل « لبنة » فيها أو « طوبة » إلى التى تليها ، لتكون الوقائع مرتبة ترتيباً منطقياً متصاعداً . وذلك كله إرهاص متتابع يوحى بالنتائج قبل ورودها ، فعل ذلك الكاتب فى مهارة فنية بارعة ، وهيأ جميع الأسباب لتتمكن النتائج النهائية فى نفوس أولاد الحارة - الدنيا - فلا تزول وإن زالت الشُّمُّ الرواسى من الجبال .

ومهمتنا فى هذه الدراسة أن نقيم الدليل تلو الدليل على صدق الفرضين اللذين افترضناهما ، وهما :

الأيديولوچية (العقيدة) التى كانت تسيطر على الأستاذ نجيب محفوظ حين كتب « أولاد الحارة » .

ثم هدفه من وضع الرواية ، وهو تفشيل دور الدين وإحلال العلم الحديث محله ، وكيف توصَّل الكاتب إلى هذا الهدف الخطير ؟!

* *

● **منهجنا فى الدراسة** :

أولاً : سنلتزم نسق الكاتب فى ترتيب فصول الرواية أولاً فأولاً .

ثانياً : إذا كان النص الذى نحتاج إليه قصيراً نقلناه كما هو مع الإشارة إلى موضع وروده فى الرواية فى أسفل الصفحة « الهامش » ، أما إذا كان النص طويلاً فسنكتفى بتلخيصه بكل أمانة وحيطة ، ثم نشير إليه فى الهامش برمز « أولاد الحارة » ، أما النص المنقول كما هو فنشير إليه مسبوقاً باسم الرواية « أولاد حارتنا » ليكون التمييز بينهما واضحاً .

ثالثاً : سنقوم بكتابة نوعين من « التعليقات » بعضها فى صلب الصفحة ، والآخر فى الهوامش حسب أهمية الموضوع الذى اقتضى التعليق .

رابعاً : سنلجأ كثيراً فى أثناء نقل النصوص أو تلخيصها إلى وضع جمل تفسيرية معترضة ، وسنميزها بوضعها بين شرطتين هكذا - . . . - لئلا يُظن أنها من النص المنقول أو الملخص . هذا وبالله التوفيق .

الدكتور عبد العظيم المطعنى

عفا الله عنه

* * *